محاضرة أسلوب القصر

1. مفهوم القصر:

لغة: الحبس والالتزام، نقول: قصرت نفسي على الشيء إذا حبستها، وقصر عن الشي عجز عنهُ ولم يبلغه وبابه دخل. ونقول امرأة مقصورة وقصورة وقصيرة: أي محبوسة في البيت، ومنه قوله تعالى:﴿حور مَقصورات في الخِيام ﴾ الرحمان آية 72.

اصطلاحا: هو تخصيص شيء بشيء أو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص. ونجد الكثير ممن استعملوا لفظة الحصر لم يفرقوا بينها وبين مفهوم القصر.

وللقصر طرفان: المقصور، والمقصور عليه، والأخير هو الشي المخصص به.

2. أقسامه:

ويقسّم البلاغيون القصر ينقسم تبعا لطرفيه أي المقصور والمقصور عليه، إلى قسمين:

أ. قصر الصفة على الموصوف:

وهو أن الصفة مقصورة على الموصوف وحده، لا تتجاوز الى غيره، إدّعاءً بأنه ليس لهذه الصفة موصوف آخر غير المنصوص عليه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاواتِ والأرْضِ الْغَيْبَ إلا اللَّهُ ﴾ {النمل:65}. ولما كان علم الغيب صفة من صفات الله عزّ وجلّ وهو الموصوف فهو من قصر الصفة على الموصوف. أيضا: " ما رسول إلا محمد "، أي أننا قصرنا صفة الرسالة على الموصوف الذي هو محمد صلى الله عليه وسلام.

ب. قصر الموصوف على الصفة: إذ الموصوف على هذه الصفة لا يتجاوزها إلى غيرها. نحو: إنما العرب كرماء، إذ يفيد تخصيص العرب للكرم، بمعنى أن العرب مقصورون على الكرم لا يفارقونه إلى غيره من الصفات فالعرب مقصورون والكرم مقصور عليهم وهما (طرفا القصر)، ولمّا كان العرب موصوفين والكرم صفة لهم. كان القصر هنا قصر موصوف على صفة، بمعنى ان الموصوف لا يفارق صفة الكرم إلى أي صفة أخرى.

ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ الا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ او قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾{آل عمران:144}

بحيث قصر الله الموصوف وهو محمد على صفة الرسالة.

وكذلك قسم البلاغيون أسلوب القصر بالنظر إلى غرض واقع الحكم إلى قسمين هما:

أ. قصر حقيقي: وهو تخصيص المقصور بالمقصور عليه لا يتجاوزه إلى غيره إما حقيقة كقوله تعالى: ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ النحل آية 02 . فقصرت على ذات الله تعالى صفة الألوهية قصرا حقيقيا، أي لا تتعداه عزّ وجل إلى سواه.

ب-قصر إضافي: وهو ما كان القصر أو التخصيص فيه بالإضافة إلى شيء آخر بالنسبة إلى جميع ما عداه، فتقول مثلا: " ما بطل إلا علي " بالقياس أو بالإضافة إلى سعيد وعثمان وموسى وغيرهم...فهنا قصرنا البطولة على "علي " لا يتعداه إلى من ذكرناهم.

وللقصر طرق متعددة وأشهرها:

أولاً: النفي والاستثناء: وهي أوسع طرق القصر وأكثرها شهرة ودوراناً في كتاب الله تعالى، والنفي والإثبات أساسا أسلوب القصر ومن خلال هذا الأسلوب تظهر لنا كل المعاني والصور المتصلة بأسلوب القصر وقيمته البلاغية . ولذلك كثرت شواهده في هذا الأسلوب مثال النفي ب "لا" قوله تعالى: ﴿ الله لا إلهَ إلا هو ﴾ التغابن آية 13 ، ومثال النفي بـ "ما":﴿ وما محمدٌ إلا رسو ل قد خلَتْ مِن قبلِهِ الرُّسل﴾ آل عمران 144 . وكذلك:﴿ ومَا يعلَم تأويلَه إلا الله﴾. آل عمران آية 70 ومثال النفي بـ"ليس":﴿ وأنْ ليْسَ للإنسانِ إلاَ ما سَعَى﴾، النجم آية 39. ومثال النفي بـ "لم" قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ واتبعوا من لم يزدْه مَاله وولَده إلاَ خَسَاراً ﴾ نوح آية 21.

وهذه الطريقة في التخصيص تستوجب أن يليَ المقصور عليه أداةَ الاستثناء، كما تبين لك ذلك في الشواهد السابقة.

ثانيا: قصر بـ(إنَّما): ويؤتى به " لأمر من شأنه أن يجهله المخاطب ولا ينكره وإنما يراد تنبيهه فقط، أو لما هو منزل هذه المنزلة". وذلك مثل قوله تعالى:﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾،

الرعد آية 19 ﴿ قلْ إنمَا أنا بشَرٌ مِثلكم ﴾، الكهف آية 115 ﴿ قلْ إنَّما العِلم عنْدَ اللهِ وَإنما أنا نَذير مبين﴾. الملك آية 26 ويرى البلاغيون أن" إنما " أفادت دلالة القصر لأنها تتضمن معنى الاستثناء، فقولنا مثلا: " إنما المتنبي شاعر" كقولنا: "ما المتنبي إلا شاعر". ولعلك لاحظت أن المقصور عليه في هذا الضرب يأتي أيضا مؤخرا.

ثالثا: تقديم ما حقّه التأخير: ومنه المفعول (إياك) و(الله) في الآيتين الكريمتين:﴿إياك نعبد واياك نستعين﴾ ، الفاتحة آية 05 و﴿ بلِ اللهَ فاعْبدْ وكنْ مِنَ الشاكِرين﴾، الزمر آية 66 وتقديم شبه الجملة إلى ربِّها في قوله تعالى:﴿ و جوه يومَئِذٍ ناضرة إلى ربها ناظِر ة ﴾. القيامة 23 أو كقولنا: " واللهَ نسأل العون والعافية "، فأصل التركيب هنا: نسأل الله العون والعافية، غير أنها جاءت بهذا التركيب للتدليل على أن الاستعانة وطلب العافية مخصوص بهما الله عز وجل، وكذلك الأمر في الآيات الكريمات، حيث قصر بعضها العبادة والاستعانة على الخالق سبحانه، والبعض الآخر أفاد التخصيص أن النظر لا يكون إلا لله.

رابعا: القصر بالعطف: ويكون بين أمرين أو أكثر يراد إثبات قسم منها ونفي القسم الآخر وأدواته ثلاثة: (لا، بل، لكن).

العطف بـ " لا ": يشترط في هذه الحالة أن يأتي المقصور عليه مقابلا لما بعد " لا" أي يكون موقعه قبل العطف بلا، وهي تفيد رد المخاطَب إلى الصواب بنفي الحكم عن التابع بعد إثباته للمتبوع، نحو قول الشاعر الأندلسي المعروف بعبيد الله الميكالي:

عمر الفتى ذِكره لا طول مدتِه ومَوْته خِزيه لا يَومه الداني

وللعلم فإنه لم يرد القصر بـ لا في القرآن الكريم.

العطف بـ" بل ": يرد المقصور عليه في هذا النوع بعد وسيلة التخصيص " بل" ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ ولا تَقولوا لمن ي قتَ ل في سبيل الله أموا ت بلْ أحيا ء ولكن لا تَشعرون﴾، البقرة 154 و﴿لا تَحسَبوه شَراً لكم بلْ هو خيْر لكم ﴾. النور 11 ومن هذا الضرب قولنا: " ما النابغة شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم بل حسان بن ثابت" وكما تلاحظ فإن كل الأمثلة

التي سقناها تحتوي على نفي، لأن من شروط القصر بالحرف (بل) أن يتق دمها نفي، لتقرير ما قبلها، وتثبيت ضده لما بعدها.

العطف ب " لكن": يأتي المقصور عليه هنا أيضا بعد " لكن "، ويشترط في القصر بهذا الطريق أن يتقدم (لكن) نفي أو نهي. وهي لا يتدارك بها بعد إيجاب، يقول سيبويه: " فإن قلت مررت برجل صالح ولكن طالح، فهو محال، لأن لكن لا يتدارك بها بعد إيجاب، ولكنها يثبت بها بعد النفي." 62 تأمل الآيات الكريمة التالية:

﴿ وما ظلَ مونا ولكن كانوا أنفسَهم يَظلِ مون ﴾ البقرة 63

﴿وما كفَرَ سلَيما ن ولكنَّ الشَياطينَ كفَروا ﴾ البقرة 102.

﴿ مَا كَانَ إِبْراهِيم يَهودِيًّا وَلَا نَصْرانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمشْرِكِينَ﴾ آل عمران 67.

ومن الأمثلة البسيطة التي يمكن إيراده في هذا السياق، قولك: " لا أجيد الغناء لكن التجويد".

3. أغراض القصر البلاغية:

اعلم أن لأسلوب القصر أغراضا بلاغية كثيرة يمكن أن نتلمسها من السياقات التي يجيء فيها هذا الأسلوب، نذكر لك منها ما يلي:

-تقرير المعنى في ذهن المتلقي وتمكينه من نفسه: ومنه قوله تعالى:﴿ لا يعلم الغيبَ إلا الله ﴾، وقوله:﴿ إنما حرَّم عليكم الميتَةَ والدمَ ولحْمَ الخِنزيرِ ﴾ البقرة 167.

وقوله عز وجل :﴿ ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾. آل عمران 144. ومنه كقول الشاعر:

وما لامرىء طول الخلود وانما يخلده طول الثناء فيخلد

-المبالغة في تصوير الأمور: ومنه قول عبد الله بن قيس الرقيات في مصعب بن الزبير يمدحه:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ومثاله قول ابن دريد:

إ نما المرء حديث بعدَه فكن حديثا حَسنا لمَن وعى

-استصغار الشّأن وتهوينه: كقول الرسول عليه الصلاة والسلام لمّ جرحت إصبعه ":هل أنت إلا إصبع دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ ". و(هل) هنا جاءت للدلالة على النفي.

-التّعريض: كقوله تعالى: ﴿ إ نما يستجِيب ا لذينَ يسمَعون ﴾ الأنعام 36 ، فليس المراد من هذه الآية هو قصر الاستجابة على الذين يملكون حاسة السمع ، إذ إن هذه حقيقة مسلم بها، ولكن المقصود هو التعريض بالمنكرين المتعنتين، فكأنهم من فرط عنادهم في حكم من لا سمع لهم.

هذه بعض الأغراض التي يمكن أن يستخدم فيها أسلوب القصر، بيد أنه يمكن للسياق أن يوحيَ لك بأغراض أخرى يفهمها المتلقي إما وإما ضمنيا.